تاريخ طابع البريد

ألف هذه الكتاب أوجين فايبه وترجمته صفية فاضل وراجعه الدكتور أنور بكير.

رحلة طويلة قطعها طابع البريد الذى نستعمله اليوم ببساطه. رحلة استغرقت نيفا ومائة وخمسين عاما. فقد سبق إلى فكرة إنشاء طابع بريد James Chalmers فى الفترة من ١٨٣٤-١٨٣٨ وإن كان «رونالد هل» جعل الفكرة، حقيقة واقعة فى منتصف القرن التاسع عشر.

وما لبثت فكرة طابع البريد أن عمت العالم اقتداء بانجلترا... بعد أن كانت رسوم التخليص تحصل نقدا عند تسليم الرسائل فى فرنسا. وكانت هذه الطريقة معقدة بطيئة فضلا عن الغبن الذى يقع على الحكومة من تخلى المرسل إليه عن تسلم الرسالة ورفضه دفع أجر نقلها إليه.

وهنا استعاضت الدولة عن هذه الفكرة بإنشاء مكتب صغير للبريد فى باريس وإصدار بطاقات لتلصق على الخطابات وإنما تعتبر بمثابة إيصال للتخليص برسومها مقدما قبل إيداعها مكتب البريد أو بالصناديق التى وضع عدد منها فى شوارع باريس وذلك بعد التأشير عليها من عمال البريد بما يفيد دفع الرسم.

وقد كانت هذه الطريقة من عوامل تنظيم حركة التراسل نوعا ما فضلا عن أنها تضمن حقوق الدولة فى تحصيل رسوم التخليص كاملة.

ثم ظهرت فى فرنسا بعد ذلك أختام ذات بصمات زخرفية حلت محل التأشيرات التى كانت تكتب على الرسائل بتخليص الرسوم.

وهنا تبارى الفنانون فى الرسوم والزخارف.

وتعددت طرق طباعة طابع البريد.

كان أول طابع مطبوعا بطريقة الحفر على الحجر.

ثم طريقة الطبع بالكليشيه الأملس.

ثم الطبع بالهيلوغرافور أى طريقة التصوير الشمسى التى أخرجت الطابع فى غاية من الأناقة والدقة أيضا، أغرت الأفراد والجماعات باقتنائها وتنسيقها وتدوين تاريخ مناسباتها. وبهذه

المناسبة بدأت طوابع المناسبات أو الطوابع التذكارية بطابع العيد المئوى الرابع لاكتشاف كريستوف كولمبس، أمريكا.

ومن الطريف أن صاحب فكرة دفع رسوم البريد مقدما هو فيلاييه الذى ترقى فى المناصب حتى عين رئيسا لمجلس الدولة.

ومن الطريف أن فلاييه شطح به خياله الواسع إلى معرفة الوقت فى الظلام بأن وضع إلى جانب سريره وفى متناول يده ساعة ضخمة، ذات ميناء كبيرة الحجم حلت محل أرقام الساعات فيها، فجوات ملئت بمختلف التوابل بحيث إذا وضع أصبعه على عقرب الساعة وحدد مكانه أو أقرب جزء منه، تذوق صنف التوابل الموجودة بالفجوة- فيعرف الوقت بالضبط من طعمه مع استعانته بقوة ذاكرته... وهذه الطريقة إن لم تستعمل لإرضاء شهيته فهى طريقة معقدة وغير بسيطة.

ومن الطرائف أنه حين قدم «رولاندهيل» أول طابع بريد، تعرض من الصحافة للنقد اللاذع وحاول النقد غمز رولاندهيل من صورة الملكة فيكتوريا على الطابع مع أن صورة الملكة كانت تمثلها فى بهاء عامها الواحد والعشرين... ونالت الصورة اهتمامها ورضاها بدليل أنها أبقت تداولها فى المملكة المتحدة طيلة مدة حكمها الذى بلغ واحدا وستين عاما... وحاول البعض الحصول على موافقتها على تعديل الصورة بعد تقدمها فى السن ولكنها تمسكت بالطابع الذى مثلها فى سن الواحد والعشرين.

أليست الملكة فى النهاية أمرأة تتشبث بالشباب رغم أنف الزمن؟

كما عانى «رولاندهيل» من ناقديه وهو مدير عام البريد حتى أنه حين أعيد إلى مكتب البريد سكرتير أعماله، آثر الاستقالة. وكان ذلك سنة١٨٦٢ فمنحة البرلمان الإنجليزى مكافأة قدرها ٢٠,٠٠٠ عشرون ألف جنيه استرلينى.

يقول المؤلف: (إن الإصلاح الذى قام به رولاندهيل، اعتبر نجاحا منقطع النظير ولندع الأرقام تتكلم: فمن سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٦٣ أى فى مدى ربع قرن قفز عدد الخطابات من ٧٦ مليون رسالة إلى ٦٤٢ مليونا كما تراوح الدخل العام من ٢,٣٤٦,٠٠٠ جنيه إلى ٣,٨٧٠,٠٠٠ جنيه استرلينى وكان الربح الصافى ما بين ١,٦٦٠,٠٠ جنيه و١,٧٩٠,٠٠٠. وقد قال جلادستون

Gladstone عن هيل عندما ترك الخدمة: (إنه الوحيد من بين جميع أعضاء المكتب المدنيين الذى يجب تلقيبه بحق ولى نعمة الدولة) .

ماذا نقول: زامر الحى لايحظى بإطراب. لقد جاء التقدير متأخرا...

كتاب عجيب يشد القارئ طويلا عند كل باب من أبوابه العشرة:

- نشأة مكتب بريد باريس سنة ١٦٥٣... مكتب صغير.
- العلاقة البريدية - المظاريف والطوابع.
- مشروع رولاندهيل ومولد طابع البريد.
- استخدام أول طابع للبريد.

• توسع الإصلاح البريدى وتطبيقه فى فرنسا.

- حياة طابع البريد فى فرنسا منذ سنة ١٨٧٠ حتى اليوم.
- طابع البريد فى العالم.
- صناعة طابع البريد.
- حسن مظهر الطابع ورسوماته.
- مجموعات الطوابع وهواة جمعها.

تفاصيل كثيرة مثيرة لاتتسع لها الصفحة وإن كانت شيقة... رحلة من رحلات العقل الإنسانى.

نقف معا عند البابين الأخيرين.

يقول المؤلف: إن اصدار الطوابع، اليوم، على اختلاف أشكالها، مجال لإظهار عبقرية العقل البشرى سواء مثلت أشخاصا أو سجلت حوادث. لقد أصبح الطابع مرآة العالم.

إنه يمثل مختلف المدنيات إلى جانب تاريخ وآداب وفنون كل شعب وموقعه الجغرافى الذى نما فيه نشاطه الاقتصادى بقدر موارد أرضه واجتهاده.

أصبح كل بلد يهتم بصور رجالاته ففى أمريكا والنمسا، يجمع كل فئة منهم فى مجموعة مستقلة كالشعراء والأدباء ورجال التربية والعلماء والفنانين والمخترعين، أو أن تصدر الطوابع التذكارية قرنا بعد قرن كما هو الحال فى فرنسا.

إن الأدب والفن يساهمان مساهمة فعالة فى إصدار هذه الطوابع التذكارية حتى الخرافات التى ابتدعتها الأساطير لم يغفلها رسم طابع البريد كأنصاف آلهة اليونان وجنيات نهر الدانوب.

ومن الطريف أن نزاعا دبلوماسيا نشأ بين الأرجنتين وانجلترا بشأن طابع احتوى على خريطة لجزر (فولكلاند) أصدرته انجلترا فالأرجنتين تعتقد أن لها حقوقا فى هذا الأرخبيل. وقد أدى بها الأمر إلى رفض كل خطاب يحمل هذا الطابع.

وقد سجل «طابع البريد» جمال الطبيعة.

فهناك شلالات فيكتوريا فى روديسيا.. وشلالات نياجرا فى أمريكا وطريق جبال الألب فى فرنسا... على سبيل المثال.

ثم جاء دور المناظر مثل طريق صينى فى هونج كونج وكوبرى أدولف فى لوكسمبرج، والبوسفور فى تركيا والقرن الذهبى...

ومن الطريف أن الحيوانات أيضا تسللت إلى طابع البريد مثلا خراف (شيلى) ووعول (بيرو) وجاموس أمريكا بل آكل النمل فى غانا الفرنسية والفيل فى ليبيريا- ولكن طابع البريد لم يسجل «بوسطجى» كاتبنا يحيى حقى الحمد لله.

والنباتات بدورها أخذت مكانا فى طابع البريد فظهر عليه كاكاو خط الأستواء، وجوز هند الكونغو بل كاوتش البلاد الشرقية.

وبالمرة المعادن كالنترات والنحاس والذهب ومعها المنشآت التى تستغلها.

أما المناسبات الدولية فحدث ولا حرج وفى مقدمتها بالطبع، مؤتمرات (الاتحاد العالمى للبريد).

كما سجل طابع البريد الألعاب الأولمبية كل أربع سنوات.

أما هواية جمع طوابع البريد فقد بلغت من الاتساع مدى ما كان يحلم به، أول من اختراعه.. لقد أصبحت هذه الهواية، فنا قائما بذاته تصدر عنه آلاف الدراسات والمؤلفات التى تنتشر فى جميع البلدان بل افتتحت له «بورصة» انعقدت أولى جلساتها فى قصر «التويلرى».

وبالطبع هناك من ينتقدون هذه الهواية وهؤلاء ينبرى لهم (فولى دى كونش Feuilet de Conches قائلا: (إن الذين يرتبون مباسم الدخان والكوالين القديمة والحبال، التى شنقت بها

رءوس مشهورة، والزرايز القديمة والشارات العسكرية وصور الامبراطور، والإمضاءات وعلب السعوط، ويضعون عليها البطاقات المرقمة، قد أدوا خدمات جليلة للتاريخ الذى غمضت بعض جوانبه على أثر حوادث واضطرابات رفعت من شأن الدول أو أدت إلى خصومات دولية أو حروب، وذلك باستطاعة دراسة روح الشعوب فى حياتهم اليومية من واقع هذه الأشياء... بل إن هذه الأشياء وإن بدت هينة فى مظهرها إلا أنها كثيرا ما تساعد على تحديد تطور الأوساط الاجتماعية فى الشعوب.. وما المتاحف إلا نوع راق من «التجميع» يوجهه التاريخ والفن إلى أغراض معينة.

ومن الطريف أن هواية جمع طوابع البريد انتظم فى سلك هواتها كثير من الملوك والرؤساء ورجال الدين أيضا !

ومن هؤلاء الرئيس روزفلت فى أمريكا والملك جورج الخامس فى انجلترا والملك فؤاد فى مصر وكارول فى رومانيا والفونس الثالث عشر فى أسبانيا واسكندر الثانى ونيكولا الثانى فى روسيا والسلطان عبدالحميد فى تركيا والبابا بيوس الحادى عشر.

إن المؤلف يعتبر الطوابع وثائق حكومية تتكلم كمتون الكتب وتفوق الخطب..

ما شى.

نأتى إلى الجد. إن أقدم نظام للبريد فى العالم عرفته مصر الفرعونية قبل مولد المسيح بثلاثة آلاف سنة. ويرجع الفضل فى هذا النظام إلى امنمحعت فى الأسرة الثانية عشر.

وعن مصر أخذه الاغريق والرومان.

وقد أنشأ الفرس مصلحة بريدية فى القرن السادس قبل الميلاد بل إن كلمة بريد ترجع إلى أصل فارسى «بوريدا» ومعناها مقطوع الذنب إذ كانت الدواب التى تحمل الرسائل يقطع ذنبها لتعرف من بقية الدواب.

مسكينة... ما ذنبها ؟

وفى صدر الإسلام نظم الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، نقل البريد بين الأقطار الإسلامية ولا تزال «المسافرخانة» خير شاهد. ومعناها المبنى الذى يجتمع فيه سعاة البريد عندما يعودون من مختلف البلاد ويحضر إليهم أفراد الشعب لتسلم مراسلاتهم.

وبهذا أكون غطيت هذا الكتاب ولكن هناك كتاب آخر اسمه (هواية جمع طوابع البريد) من حق الموضوع أن أقرأه أيضا... فقد وقفت على إضافة طريفة وهى أن من غرائب هواة جمع طوابع البريد أنهم لايستفيدون من الكتب التى كتبت عن هذه الهواية!! فالمؤلف يقول إن معظم الهواة يدفعون جنيها كاملا ثمنا لأحد الطوابع ولايدفعون ريالا ثمنا لكتاب يزيد من معلوماتهم عن الطوابع واستمتاعهم بجمعها.

ومع هذا يضع المؤلف بين أيدى هؤلاء الهواة، المجلات التى تعنى بهذه الهواية.

بقى أن نعرف- من الكتاب الثانى- أن عددا كبيرا من نوادى الطوابع قامت فى كل البلاد المتحضرة.

والمنظمة التى تضم أكبر عدد من الأعضاء هى الجمعية الأمريكية لهواة الطوابع.

وأقدم جمعيات الهواة وأشهرها هى جمعية الهواة الملكية بلندن وقد تأسست سنة ١٨٦٩.

وهناك أيضا جمعية الهواة الأحداث وهى أكبر منظمة من نوعها وتعقد الاجتماعات فى لندن بانتظام خلال الموسم.

وهناك معارض طوابع البريد.

وقد أقيم فى القاهرة فى عام ١٩٤٦ من ٢٨ فبراير إلى ٨ مارس معرض لطوابع البريد بمناسبة مرور ثمانين عاما على إصدار أول طابع بريد فى أول يناير سنة ١٨٦٦. وكان هذا المعرض هو أول معرض يقام لطوابع البريد فى مصر. وأصدرت مصلحة البريد لهذه المناسبة طوابع تذكارية مكونة من أربع فئات هى ١ مليم!!، ١٠، ١٧، ٢٢ مليما!!

وهناك متحف طوابع البريد المصرى وزيارته ممتعة.

وهناك (الجمعية المصرية لهواة طوابع البريد) بالقاهرة ولها فرع بالإسكندرية.

وقد أنشئت سنة ١٩٢٩ وعدد أعضائها يربو الآن على الألف خمسهم منتشر فى جميع أنحاء العالم والباقى فى مدن مصر، الكبرى وتصدر الجمعية مجلة فصلية.

كما تصدر الجمعية «كتالوج زهيرى للطوابع المصرية والسودانية» قام بإعداده السيد أحمد مظلوم رئيس الجمعية وقيمة هذا الكتالوج أنه يحتوى على كافة المتنوعات والأخطاء التى توجد فى تلك الطوابع ويوضح صورها وأشكالها وأثمانها.

وقد منح هذا الكتـالوج جائزة فى المعرض الدولى الذى أقيم فى مـدينة هلسنكى عام ١٩٥٦ عبارة عن ميدالية فضية مذهبة أو كمـا يسمونها دبلوم الميدالية الفضية المذهبة وهو أرفع جائزة تمنح للمؤلفات عن طوابع البريد.

لا يزال فى الحديـث متسع عن طوابع الـبريد ولكن الصـفحة هى التى لم يـعد فيـها مـتسع.. يكفى أن رابند رانات طاغور كتب تمثيلية أسماها «كتب البريد» .

obeikandl.com